"عصفورة من المغرب" والدلالات النفسية

دراسة تحليلية نقدية

د. نادي ساري الديك*

---

*أستاذ مشارك / منطقة رام الله التعليمية / جامعة القدس المفتوحة

ملخص

عصفورة من المغرب، عمل روائي يحمل دلالات عميقة، لأنه يناقش موضوعاً حساساً وفاعلاً في مجتمع ينمي هذا الأمر ألا وهو (الجنس)، والترويج له بحيث غدا هذا الصنيع ينمو مع نمو المجتمع الذي يجعل له خصوصيات متعددة.

علماً أن الكاتب لم يشأ أن يبرز هذه المعضلة بل حاول إيصالها عبر فكرة تحمل هموماً إنسانية بحتة، إلا أن الباحث قد شخص نوازع الجنس ودوافعه كي تأتى الصورة واضحة من خلال سطور البحث الهادفة في ذاتها وكينونتها.

Abstract

"A Bird From Morocco " is a narrative production which holds deep connotation, since it discusses a sensitive and active issue, in a society that supports the concept of "sex" and promotes for it The idea of "sex" has been developed along with the society that makes its own characteristics.

It is worth to mention that the author didn't intend to raise this idea, rather than trying to link it through an idea that holds pure human concerns.

The critic analyzed the "sex" trends and incentives to clarify the image through the meaningful lines of this study.

عصفورة من المغرب والدلالات النفسية
دراسة تحليلية نقدية

مقدمة

لكل عمل قيمه وثوابته، كما هو الحال في رواية "عصفورة من المغرب" التي حاول الكاتب من خلالها إبراز قيم وأهداف يؤمن بها. لذا ارتأينا أن نقيم هذه الدراسة على ذاك العمل حتى تنبلج الحقيقة من خلال فهمنا للموضوع الذي لم يأت متجانساً مع طرح الكاتب، بل كان التباين واضحاً. وهذا الأمر لم يكن من الناحية الفنية، بل من حيث الجوهر ودلالة الأفكار والمضامين والقيم التي يحاول إيصالها، مما حدا بنا الغوص في أعماق هذا العمل والبدء في تحليله تحليلاً نقدياً يقوم على أسس موضوعية إلى حد بعيد، حتى غدا البحث شاخصاً في النور يحمل ما يحمل من روحية فاعلة وأفكار بناءة، بعد أن وضعت عناوين فرعية للبحث، وهذه لم تأت عرضاً، بل تسهيلاً للعملية البحثية التي أفاد الباحث من خلالها من أفكار وطروحات الآخرين فيما يخص فهم العمل الروائي ودراسته. وكذلك الإفادة من ميادين المناهج الأدبية التي أنارت الطريق أمام الباحث كي يتجسد المنهج التكاملي الذي ظلل روحية العمل وإنبعاثته.

– تقديم

"عصفورة من المغرب"[1] عنوان له دلالته، اختاره الكاتب حنا إبراهيم لروايته التي صدرت أخيراً عن قسم الثقافة العربية بوزارة المعارف والثقافة، عام ٢٠٠٢ عن مطبعة الوادي بمدينة حيفا الفلسطينية.

هذه الرواية تقع في مئة وأربع عشرة صفحة من القطع العادي، وغلافها يحمل رسماً معبراً إلى حد بعيد، وبتخطيط له دلالات واضحة الأهداف.

أما الكاتب حنا إبراهيم، فأرى أنه من المثقفين الذين بنوا تراكماتهم الثقافية اعتماداً على الذات لا على السلم العلمي أو الشهادات التي تمنح، ونستطيع القول إنه من الذين أسسوا لثقافة الذات والمجتمع برؤية واضحة الدلالة والأهداف، بقطع النظر عن تأييده أو معارضته في هذه الأصداء الثقافية المتراكمة، إننا نكن له الاحترام والتقدير ونشد على يديه، لأنه يصارع الحياة وهمومها مع أقرانه، ويعومون ضد التيار، وإن اختلفت حالات المد والجزر التي نراها ونحسها بوساطة ذاك التيار، الذي يحاول هدم كينونات لنا على مر الأزمنة، لكن الجادين في حياتهم والقابضين على الجمر، يسرعون في خلق تيار

ولد الكاتب العربي الفلسطيني حنّا إبراهيم عام ١٩٢٧م في قرية البعنة في الجليل، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة الرامة، والثانوي بمدينة عكا، والتحق بالكلية العربية بالقدس. عمل مدرساً للقانون في مدرسة الشرفة ببيت لحم حتى عام ١٩٤٨م. منذ صباه التحق بالحزب الشيوعي، ظل مخلصاً لأفكاره حتى فصلته اللجنة المحلية من الحزب بتاريخ ١٩٨٩/٣/٢١م دون معرفة الأسباب.

وحنا إبراهيم من الأدباء اللذين كتبوا في مجالات الأدب المختلفة إذ نراه يكتب الرواية والقصة والشعر، وله مجموعة من الأعمال الإبداعية منها:

١- أزهار البرية – قصص – ١٩٧٢م

٢- صوت من الشاغور – شعر – ١٩٨٢م

٣- عصفورة من المغرب – رواية – ٢٠٠٢م

مواز، بل منادد لذاك التيار لخلق حالة التماسك والاندفاع من أجل وطن أسمى وأجمل، وإن كثرت أنياب الأفاعي التي تدس السم في الدسم للقضاء على معطيات البزوغ المنتظر، لكن جراحات الحياة وعذابات الزمن تتوحد في مثل هذه الرؤى حتى تستكمل حلقات الاندفاع الذاتي، وتتشكل الرؤية الثابتة المتجددة.

إن هذه الرواية، وصلت إليّ عبر البريد الذي لا يصل كما هو لأن الرقابة لا تبقى الأشياء على ما هي عليه.

- بين يدي الرواية

إن رواية عصفور من المغرب، تعد أول رواية تقع بين يدي من كاتب عربي يناقش موضوعاً حساساً على هذه الشاكلة، ويجعل أبطال الرواية من غير العرب، وأبطاله العرب ثانويين رغم فاعليتهم في بنية الفكرة أكثر من بناء الحدث، وقد وضحت الرواية قضية مهمة في حياة الشعب اليهودي من خلال قضايا مدروسة ومنظمة في هذا الكيان، (الكيان اليهودي) على مدار التاريخ، حيث معضلة الزنا والرواج لها وموقف الآخرين منها، من القضايا المهمة التي تستحق الوقوف عليها ومعالجتها معالجة فكرية للوصول إلى كبد الحقيقة.

فالفكرة العامة التي تعالجها هذه الرواية، هي فكرة الاغتصاب والزنا وكيف تتوالد مع الأيام من خلال مروجيها والقائمين عليها، وأهل المتعة من الطرفين (المتعة السلبية والمتعة الإيجابية) إن وجدتا أصلاً في مثل هذه المواقف، وكيف تكون هذه أي حرفة الزنا مدخلاً للوصول إلى الهدف المنشود الذي يخطط له القائمون على ترويجها، لأن هذه المهمة ليست سهلة، بل يظن بها السهولة واليسر، إلا أن الحقيقة غير ذلك حيث الصراع يتجدد ولو عند إنسان واحد من الذين يزج بهم في هذه الموجات الهادمة من المتع الزائلة، فالنفس البشرية ليست حالة واحدة، بل هي حالات متعددة حسب الإنسان الذي يمر بتلك الرحلة المقصودة، أو التي توصل الآخرين إلى حتمية التدمير والإذلال، لأن هذه الحرفة توقع الآخرين في مهاويها دون محاذير أو عوائق، إلا من رحم ربي وشاء له النجاة، من

تبعات اللذة المشوهة. لقد أصاب الكاتب كثيراً في فتح هذا الباب الشائك، على الرغم من صعوبة المسالك والطرق وسهولتها معاً، لأن النتيجة تكون حتمية الأداء والقرار. وبذلك نرى طبيعة الحياة وتراكماتها لدى المجتمع العربي دون النظر إلى الدين والعقيدة اللتين يحملهما المرء، إلا أن نتانة هذه الجادة ومرارة مذاقاتها تجعل أبناء المجتمع العربي رافضين لها على الرغم من وجود فئة ضالة مروجة لها، إن كان ذلك من اجل ذلك من أجل الكسب المادي أو من أجل الافخاخ التي تكون في ماهية الجنس ودوافعه، إلا أن النتيجة تكون محسومة وهي تدمير كيانات النفس البشرية مما يؤدي تلقائياً إلى تدمير كيانات المجتمع الأكبر فالأكبر، حتى الوصول إلى مجتمع مهترئ لا قيمة له بين المجتمعات والشعوب الباحثة عن بناء الذات ورصّ الجماعة.

الفكرة العامة

إن الفكرة العامة التي جاءت بها الرواية واضحة المعالم والأركان، لا غبار في ذلك ولا تشويه، وهي مسألة الزنا والترويج لها، إلا أن هذه الفكرة قد توصلنا إلى فكرة مؤكدة مبثوثة بين ثنايا الرواية، هي فكرة سياسية ذكية، مفادها إن مشاكل المجتمع اليهودي لا تنتهي حتى إن وجد لهم وطن كامل السيادة تحت إمرتهم ومعطياتهم الفكرية، وهذا دليل حي وواضح على ما يرنو إليه الكاتب، من أن الهموم والإذلال والسيطرة على الآخرين ظلت تلازم المجتمع اليهودي منذ وجود اليهود في بلادهم الأصلية مروراً بوطنهم المزعوم "أرض إسرائيل" حيث المشاكل والهموم عالقة في الحياة ومتجددة مع الأيام، والسبب وجود شخصية "تقف حجر عثرة في طريق المجتمع، وتسد الطريق في وجه كل تقدم ممكن"(١) يزيل العوائق بين أبناء المجتمع، الواحد دون النظر إلى الدين والعقيدة، بمعنى أن المجتمع في كثير من الأحيان قد لا يكون صافياً من جهة العراق والدين والعقيدة، لذا على الجميع أن ينخرطوا في بناء هذا المجتمع من أجل وحدته وسيادته، إلا أن مثل هذا الأمر قد لا نجده عند زعامة المجتمع اليهودي أو بعضهم، حيث تعارض هذه الزعامة فكرة اندماج اليهود مع المجتمع الذي يعيشون من خلاله وإن أراد اليهود ذلك، بل ويحاربون اليهود الداعين إلى فكرة الاندماج والعيش من خلال مجتمع واحد متعدد الأعراق والديانات والعقائد والأفكار، من هنا تتشكل حالة العداء والقوقعة

حول الذات كي تصبح الفوارق واضحة المعالم بين أبناء المجتمع من الناحية العقدية والدينية، وتبقى طبقتا الرحى تطحن أبناء المجتمع، متناسية روحية الدين والنظرة البشرية في التسامح والانعتاق نحو الحرية والمساواة، وهذا يعود كما نرى إلى التناقض في الحياة، ووضوح الهدف التدميري لدى بعض الشخصيات القائدة في المجتمع اليهودي، لأنها "أكثر حيوية وعطاء في دلالاتها النفسية، بما تقدمه من نماذج من البشر يتفردون بحالات شعورية خاصة تستحق الدراسة والتأمل والكشف، وقد تكون هذه الحالات نتيجة لأمراض نفسية موروثة أو مكتسبة، أو نتيجة للإحساس بالإحباط وفقدان التجاوب مع المد الاجتماعي ..." (٢) الهادف إلى بناء المجتمع وتذليل الصعاب كي يتوحد المجتمع دون النظر إلى العرق والدين، وهذا ما يحاول الكاتب تأكيده، من أن اليهود في الوطن العربي لم يتعرضوا للذل والإبادة والتفرقة كما تعرض له يهود أوروبا التي حاولت جاهدة الخلاص منهم دون النظر إلى الكيفية والنتيجة، "فيما أخذت أنباء الفظائع والإبادة التي تعرض لها اليهود في أوروبا تخرج إلى النور، أما الدار البيضاء، فلم يتعرض اليهود بصفتهم "يهوداً " لأي اضطهاد عنصري، بل كانوا يشعرون أنهم مواطنون عاديون، وربما كان مستوى معيشتهم بشكل عام أفضل منه لدى أقرانهم العرب" (٣).

إن الفكرة التي يحاول الكاتب تسويفها واضحة دالة، على الرغم من اختلافنا في الفهم، بحيث يأخذ الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون عنصراً خاصاً عن سائر العرب، فالعرب كأمة يقيم بين ظهرانيها اليهود والمسيحيون والمسلمون من العرب، فاليهود في الوطن العربي هم عرب ظلت عقيدتهم اليهودية هي السائدة لديهم وكذلك المسيحيون، فالعرب أمة متعددة العقيدة، لا تنظر إلى العقيدة من أجل أن يصبح الإنسان عضواً في المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا ما أكده الإسلام بعد العروبة من أن المجتمع المسلم متسامح إلى حد كبير، ويقبل الديانات والعقائد الأخرى في الحياة إلى جانب الإسلام، شريطة ألا تكون وسيلة في تدمير العقيدة الإسلامية، والمجتمع المسلم. إن جل المفكرين اليهود ينطبق عليهم القول من أن كل واحد منهم هو "بطل شخصاني يقر بواقع القطيعة وينغلق على نفسه وأفكاره" (٤) كل ذلك من أجل اقناع الآخرين بأن اليهود شعب مميز له من السمات والصفات ما يميزه عن الآخرين، لذا يجب الانغلاق على الذات وعدم الاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، حتى إن كان ذلك عن طريق الجنس والشذوذ الجنسي، الذي

يفسره بعضهم بأنه تعويض عن نقص معين، فعدم استطاعة بعض اليهود الانـدماج فـي المجتمع الذي يعيشون فيه جعلهم يرون أن ذلك المجتمع شاذ ويجب محاربته والانغـلاق على الذات، ويوهم الآخرين أنهم يمزقون قيود المجتمع، حتى يكشف لنا الأبعـاد النفسـية والروحية للمفكر اليهودي واليهودي العادي معاً، من أجل البقاء كما تشاء العقيدة اليهودية كما يوصلها المفكرون اليهود للآخرين من اليهود وغيـرهم. إن مشـكلة اليهـودي فـي الانخراط في مجتمعه، لمن المشاكل التي لازمته منذ عمق التاريخ إلى أن يتخلى مفكروهم عن هذا النمط من الأداء والتفاعل، فذواتهم تتأرجح بين تحقيق هذه الذات إن استطاعوا أو تقوية علاقاتها مع أندادها من اليهود في المجتمعات الأخرى أو سائر أفراد المجتمـع، أو بين فصل الذات عن هذه الشريحة من المجتمع حين تجنح إلى العزلة والانتقام من طبيعـة هذه الحياة، بلجوئها إلى الاستمتاع بأمور متعددة، منها ما يعرفه المجتمـع ومنهـا مـا لا يعرفه، وهذا ما ترغبه الحالة النفسية لدى اليهودي "التي تشكل وحدها عالمه الذي يبـتهج له ويرضيه" (٥). ومثل ذلك يشكل أزمة حادة لازمته في كل شيء واسـتأثرت بحياتـه ليظل في صراع دائم تحت وطأة إحساسه بقيمة الوجود ومعاناتـه منـه ليسـتحوذ علـى تفكيره.

لم يجد اليهودي المنعزل في مجتمعه وعن مجتمعه "غير استعلائه على أعرافـه الماثلة في عالمه الخارجي منتصراً لذاته في أمانيه وطموحاته، وأن يجعل لعالمه الداخلي نمطاً خاصاً يحدد معالمه في موقفها من العالم الخارجي والذي أصبح خاضـعاً لإرادتـه" (٦)، إن اليهودي من خلال هذا الموقف يشعر الآخرين بصراع حاد وعنيف بينـه وبـين المجتمع الذي ينتمي إليه، أو قد يوحي للآخرين بوجود حضارتين متصـارعتين فـي آن واحد، والحقيقة أنه لا يوجد سوى حضارة واحدة هي حضارة المكان والزمـان للمجتمـع الذي يعيشه اليهودي، إلا أن الانبعاث النفسي تجاه خلق فـوارق واضـحة مـع الـذات والمحيط، يحاول خلق حالة من القناعة واليقين أن الأمور التي يعيش من خلالها هي مـن صنعه وحضارته، ومثل ذلك ما هو إلا محض تخيل وتزييف للحقيقة، وهذا نابع من عقدة تاريخية تلازمه ونرجسية قاتلة تملي الغشاوة على ناظريه حتى لا يرى شيئاً أبـداً، غيـر تلك النظرة التي يراها ويحاول إقناع الآخرين بها. ومثل ذلك قد لا يتمثل فـي السياسـة فقط، إنما في جل مجالات الحياة المختلفة، حتى إن ظاهرة الزنـا المرفوضـة مجتمعيـاً

وتربوياً ودينياً وثقافياً جعلها الكاتب متأصلة لدى فئة من اليهود، على الرغم من رفضها من الممارسين لها في بعض الأحيان، وكأن هذه الظاهرة يتوارثها الباحثون عنها كي تصبح متسلسلة في أسرهم، حتى كأن الكاتب يقول أن الجينات التي تتكون من حيثيات الزنا تولد هذه الرغبة في الجينات المنفلتة منها وعنها، بمعنى أكثر شمولية أنه جعل هذه الظاهرة تورث من الأجداد إلى الأحفاد عبر الآباء، فكل منهم يسعى لهذه السمة أراد ذلك أو لم يرد.

فحين اغتصبت (مالكة) من رجل مجهول إلا أنه يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، رفضت الأسرة (أسرتها) ذلك، إلا أنها لم تحرك ساكناً سوى التفكير في الرحيل عن الحي، خلاصاً من التبعات الاجتماعية لا الدينية، لكن المسلك العام للأسرة لم يضع حداً لهذه الظاهرة، بل التربية والتنشئة للجيل جعلتا ظاهرة الزنا تورث من جيل إلى أخر، على الرغم من تعدد الأمكنة والأزمنة. ولا أظن ذلك يقع دون رؤية معينة من المجتمع الذي يتحدث عنه الكاتب.

حين ولدت (مالكة) من حمل الزنا أنجبت فتاة تتمتع بجمال مغرٍ، على الرغم من رفضها للإغراءات التي جاءت بها (الست عزيزة) فكانت النتيجة ضياع (مالكة) وخلق جنين في أحشائها من قبل رجل مجهول، تعمل لديه عزيزة، تلك المرأة التي تتردد على صالون الحلاقة الخاص بالنساء الذي تعمل فيه (مالكة). وهي معروفة أي عزيزة بإنفاقها للمال دون قيود، وهذا دفع مالكة للسؤال عن "موقف زوجها من أنفاقها المال بهذا الشكل. قالت: أنا لا أسمح لأحد أن يحاسبني، وحتى الله إذا حاسبني أكون ميتة، ثم لماذا نسمح للرجال بمحاسبتنا ؟ أما كفاهم ٧ آلاف عام من التحكم المطبق وكفانا من العبودية لهم، انظري للرجل في بلادنا يفعل ما يريد" (٧) هذا الجنين الذي خلق في أحشاء (مالكة) هو فتاة سميت فيما بعد باسم (استر) استر التي فضت بكارتها وعمرها ثمانية أعوام على يدي مردخاي صديق العائلة ثم هاجرت إلى فلسطين وبدأت تمارس الجنس وأنجبت ثلاثة أولاد من الزنا لأبوين مختلفين، وذلك نتيجة للتربية السيئة والحرمان الأسري والقسوة من المجتمع، "أما الجد الجديد فتقبل الحدث كأمر مسلم به. تمتم قائلاً: لتكن مشيئة الله. تعال ساعدنا على إيجاد اسم للبنت، ما رأيك باسم تسيبورا، اسم مليح ومعبر حيث ستطير معنا

يوماً إلى أرض صهيون، ولكن أفضل اسم استر، ليكن أستر، نسميها أستر"(٨) مثل ذلك يوضح لنا مدى أهمية العلاقة في المجتمع، ومدى التفاوت الطبقي والحنق لدى الناس تجاه التسلط والهيمنة، إلى جانب ذلك سطوة الرجل وسيطرته، ونفور بعض النساء من ذلك، مما جعل الكاتب ينتصر للمرأة من خلال كلامه على لسان الست (عزيزة) إلا أن انتصار الرجل ظل مسيطراً، لأن المرأة لم تصنع شيئاً لنفسها للخلاص من تبعية الرجل، بل أخذت المرأة المتمردة (عزيزة) بالتغرير بالأخريات من بنات جنسها خدمة لغرائز الرجل ونهمات نفسه الشريرة التي لا تنتهي، بذلك غدت المرأة العدو المفترس للمرأة علمت بذلك أم لا، زد على ذلك التربية والتنشئة التي تقوم بها الأم تجاه الأولاد ذكوراً وإناثاً، فتنتقل تلك التبعية من خلال الحياة اليومية كي تصبح من المسلمات أو المقدسات لا يجوز الفكاك منها، وهذا ما نلمسه عند كثير من شخصيات الرواية التي "لا تلبث أن تتقدم وتكشف عن جوانبها الثرية كلما تطورت الحكاية، فهي شخصية حافلة بالعواطف المعقدة والتغيرات المفاجئة" (٩)، هذه التغيرات التي نلمسها في شخصية (أستر) التي تروي لنا حكايتها، والتي غدت قناعاً سردياً للكاتب، أي جعل الكاتب نفسه حيادياً إلى جانب بروز أناة في ثنايا روايته، وتسيير بعض الشخصيات حسب هواه وأفكاره، وهذا ما نراه عندما يجعل أستر تتحدث عن مردخاي وغير ذلك، فعندما حاولت الاستفسار عن الاغتصاب أخذ مردخاي يشرح ذلك تطبيقاً، وأستر هي مادة التطبيق والضحية "ماذا تعني بـ اغتصبها، وراح يشرح لها كيف يكون ذلك، "جعلني أخلع سروالي وأجلسني في حضنه وراح يضمني بشدة بشكل غريب... تكرر هذا مرة أو مرتين". (١٠)، مثل ذلك لم يكن للمرة الأولى ولا الأخيرة، وإنما نتيجة لتراكمات متعددة وعدم حصر اليقين والردع. أخذ مردخاي يكرر لعبته المشتهاة "ولكن هذه المرة لم تكن كما في السابق، إذ أنه سبب لي ألماً شديداً ونزيفاً، حرص على ألا يلطخ الدم أي جزء من ملابسي، مسحه بمنديله، أوصاني محذراً بأن لا أخبر أحداً، وإلا فإن غضب الله والناس سينزل على رأسي، وتركني مستسلمة للبكاء". (١١)

فالعملية التي أداها مردخاي تخلق ضرراً بالجميع ، وهذا مرده للتربية والتثقيف البيئي، إلى جانب أنه نتاج للفكر القائم على التعميم والتخصيص لهذه الظاهرة، لأن المجتمع يتعامل معها كما يفهمها المؤدي، لذا تبقى النظرة قاصرة وإن فهمت بغير ذلك الفهم السائد. وهذا الجرم الذي وقع على "أستر" رغم طفولتها، لم ينزع النظرة الإنسانية

لديها، وكذلك لم يجعل منها إنساناً عدوانياً أو شريراً، بل جعل الحياة طبيعية معها تجاه الأشياء الأخرى، عكس والدتها (مالكة) التي لم تبد الرغبة في التعامل مع ابنتها بعد زواجها من "يعكوف"، وكأن مشاعر الأمومة عدمت من حواسها تجاه ابنتها أستر، فلم تبد تجاهها غير مشاعر مميزة، حتى جدتها ومحيطها، إلا أن جدها قد شذ عن القاعدة نوعاً ما، فصار يلاطفها بين الفينة والفينة، ويشعرها بطفولتها، في بعض الأحيان كما كان يوم ميلادها إذ أحضر لها لعبة خاصة بها "كان جدي هو الوحيد الذي لم يسئ معاملتي، وهو الوحيد الذي اشترى لي دمية كانت لعبتي الوحيدة في طفولتي، كان ذلك صباح ذات يوم، قدم لي الهدية وقبل جبيني قائلاً، كل عام وأنت بخير، كان ذلك يوم ميلادي، فرحت كثيراً وكدت أبكي من الفرح" (١٢) هذه القسوة من المحيط لم تنتقل بالعدوى إلى "أستر" في معاملة الآخرين والنظر إليهم، وكما هو الحال مع أولادها الثلاثة (ولدان وفتاة) من أبوين مختلفين، إذ كانت تعطف عليهم وتشقى في كسب القوت من أجلهم، وهذا يعني أن المشاعر الإنسانية لا تموت عند الناس جميعاً، بل تظل حية ولو في نفر قليل من الناس، وإن كان كمثل الذي حدث لأستر "يخلق شعوراً بالاغتراب عن النفس" (١٣) مثل هذا يعد عبئاً كبيراً على كاهل الإنسان، لذا بقيت العلاقة الضدية مع بعض الرموز قائمة وإن حاولت التماثل مع الحياة والتفاعل معها، حتى أيقنت أن بعض الرجال يجب قتلهم والخلاص منهم، خاصة إذا لم يكن أولئك الرجال يقيمون الحياة، ويميزون بين الأشياء. كما هو الحال مع داني والد ياعيل الفتاة الشابة والمكتنزة بالجمال والأنوثة، التي فقدت عذريتها على يدي والدها بالزنا (داني) الذي أراد إذلال أمها أستر لأنها رفضت ديمومة العلاقة الجنسية بينهما دون رابط شرعي، بهذا أقدم على فعلته وفض غشاء بكارة ياعيل، "ولدهشتي توقفت لدى سروال تحتي ملطخ بالدم، كان السروال لياعيل، كانت إشارة واضحة إلى أن الفتاة فقدت عذريتها، "إظلّمت الدنيا في وجهي، لشدة ما كنت حريصة على أن أجنب ابنتي المصير الذي كان نصيبي. حملت السروال الملطخ بيدي، وهرولت إلى حيث تنام ياعيل، كان وجهها مدفوناً في الوسادة، وجسمها شبه عار يشع بجمال وجاذبية غير عادي. أيقظتها بفظاظة، وقلت لها ما هذا؟ أجيبي انخرطت في البكاء، واعترفت أخيراً تحت إلحاحي أن داني هو الذي ضاجعها" (١٤).

إن توالي الأحداث وتأزمها يجعل من أستر امرأة تبحث عن الانتقام للخلاص من العار الذي خلفه داني لابنته ياعيل، وللأسرة التي نكبها من خلال الزنا المشترك والزنا

في الذات، حيث يمارس اللواط وهو المفعول به، وكذلك جلب الآخرين لممارسة الجنس مع أستر مقابل المال الذي يبحث عنه أبداً، من أجل ديمومة العيش وإشباع الذات بملذاتها. بهذا يوقن الدارس أن "المجتمع النفعي الاستغلالي هو المسؤول عن ظاهرة المومسة، الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي المسؤولة عن المومسة، والمومسة ليست أكثر من ردة الفعل للفعل" (١٥)، والذي يتتبع يرى أن انقياد داني للخمرة والارتماء في أحضانها، والبحث عن ملذاتها ومسوغاتها، وإجبار أستر على منادمته مع الآخرين الباحثين عن اللذة والمتعة في جسدها مقابل حفنة من المال، أدى به إلى اعتبار هذه الحالة ذاتاً مشخصة، يلتمس قدرته وعزاءه من أجل المقاومة في الحياة كما يعتقد، حيث يقاوم من الحياة عبئها ومظانها، لذا يكون مزاجه النفسي متقلباً حسب حصوله على اللذات وإشباع الرغبات. هذا يرينا أن علاقة داني وغيره من الزناة بالزنا تشكل علاقة جوهرية أو بعداً جوهرياً من أبعاد الحد الأسمى لملاذ الحياة بالنشوة الدائمة، دون النظر إلى مصدر هذه اللذة أو تبعاتها.

- الشخصيات

ينظر علم النفس إلى الشخصية على أنها "ذلك المفهوم أو ذلك الاصطلاح الذي يصف الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية والإدراكية معقدة التنظيم، التي تميزه عن غيره من الناس، وبخاصة في المواقف الاجتماعية" (١٦). فالشخصية تتأثر بأبعاد ثلاثة عند تكوينها، هي البعد التكويني، والبعد الثقافي، البعد الاجتماعي، أي أن هذه الأبعاد الثلاثة ضرورية في خلق الشخصية فنياً، فحين نعمد إلى الشخصية في العمل الأدبي نجدها من صنع الإنسان أو هي حقيقية قد أفاد منها الإنسان في عمله الأدبي " من هنا نقول أن العمل الأدبي مهما تعددت قيمه وانفعالاته، لا يستجمع من حوله عنصر الحيوية إلا إذا خلق الأديب شخوصه من خلال هذا العمل، كي يوصلوا العمل إلى مستويات الفن الراعي، بهذا يكون العمل وسيلة للتعرف على الأشخاص، والأشخاص بنية فاعلة في معمار العمل الأدبي عامة، والروائي أو القصصي خاصة" (١٧).

إن الشخصية الإنسانية جزء فاعل في العمل الأدبي، والذي يعمد إلى رواية

"عصفورة من المغرب"، يجد أن كاتبها قد تعامل مع شخصياته بمستويات متعددة إلا أنها واضحة، فهذه الشخصيات ساهمت وتساهم في صنع الحدث وجعله شيئاً مجسداً يتفاعل معه الآخرون سلباً أو إيجابياً.

فأول مستوى علاقاته مع الشخوص جاء، وقد انتصر إلى شخوصه كما فعل مع مالكة، وأستر، وأم سالم، وأبو سالم، الجد الذي حنا على أستر في صغرها، مما يؤكد أن الشخصية "لا يكون لها معنى في بنية العمل الروائي إلا إذا كانت لها وظيفة تمارسها في علاقتها مع الشخصيات الأخرى والحوادث" (١٨).

وقد جعل الكاتب هذا الجانب من شخصياته ينمو مع الحدث ويكون جزءاً فاعلاً في خلق الحدث وديمومته، ومن خلال السرد اللغوي وخلق الحوار نراه ينتصر إلى مثل هذه الشخصيات وينميها ويجعلها تتحرك بحرية دون عائق، لكنه قد ينطقها في بعض الحالات حسب فهمه ورؤيته الفكرية والبعد الثقافي الذي يريده للشخصية، كما هو الحال مع أستر حين علمت بفض غشاء بكارة ابنتها ياعيل من والدها داني. "أما أن تصل السفالة إلى درجة مضاجعة ابنته فلم تخطر لي ببال، انتصبت في خاطري فكرة التخلص منه بقتله، تسلط علي هذا الهاجس ليلاً نهاراً، وظل السؤال كيف ؟ استبعدت فكرة تحريض ساشا خوفاً من أن يقضي بقية حياته في السجن. لم يكن أمامي إلا أن أقتله بيدي" (١٩).

إن مثل هذا الحوار الذي يشكل حالة من السلاسة والتفاعل مع الحدث، لم يكن ليحدث من امرأة شبه أمية، حظها من التعليم قليل بل يكاد يكون منعدماً، إن مثل هذه اللغة هي لغة الكاتب، وهذا رأيه، غير أنه ألبسه لأستر صاحبة المصيبة المزدوجة والمتكررة في ذاتها وابنتها ياعيل، من هنا نراها أخذت تفكر في القتل والانتقام، كي يكون القتل هو المعوض عن هذا الشذوذ الذي أصاب الأب والحياة معاً.

وتصرف داني من خلال جريمته مع ابنته وأمها نراه يركن إلى أسباب متعددة، منها تكوين داني النفسي والجسدي إلى جانب القيم والظروف الاجتماعية السائدة التي

ساعدت على خلق مثل هذه الشخصية الساقطة مجتمعياً (داني) وأمثاله.

وأما النوع الثاني من الشخصيات لدى الكاتب في روايته فنراه وقد جعله على نقيض من النوع الأول، أي أنه لم ينتصر له، بل حاول أن يحجمه ويجعله محتكراً ذليلاً منبوذاً، كما هو الحال مع مردخاي الذي فض غشاء بكارة أستر وهي في الثامنة من عمرها بعد أن جعلها تتقرب منه من خلال إظهار بعض الحنان والمودة تجاهها، وكذلك تقديم بعض الحلوى لها، وكذلك شخصية داني والخالة مريم التي تذمرت منها وطردتها من المنزل، وهي بحاجة إلى رعاية وحنان، كما هو الحال مع الأم (مالكة) التي لم تبد أي نوع من العطف تجاه ابنتها أستر، والجدة التي تبرمت حين علمت بجنس المولود بعد ما ولدت (مالكة) أستر، وقالت لو كان المولود ذكراً لكانت المصيبة أقل وقعاً في النفس "لو كانت ولداً لكانت المصيبة أهون" (٢٠)، مثل هذه المواقف جعلت أستر تجنح في بداية عهدها نحو الحياء والانطواء والميل إلى العزلة والولع بالخيال..." (٢١) خوفاً من الواقع وتبعاته، إذ لم تعد تأمن جانب أحد من الذين تعاشرهم، دون النظر إلى العمر والتوجه والمعرفة الثقافية. من خلال ذلك نشعر أن الكاتب يتعامل مع أبطاله أو شخوصه تعاملاً صادقاً إلى حد معقول، بمعنى أنه يحاول إيثار الفن والفكرة العامة على الأيديولوجية والعواطف الذاتية، وكأن قول حنا مينا تجاه أبطاله وشخوصه ينطبق إلى حد ما على شخوص حنا إبراهيم في هذه الرواية يقول حنا مينا "أثرت الصدق التاريخي والصدق الفني على رغباتي الذاتية، على أفكاري الأيديولوجية، ولم أفرض نفسي على أبطالي، لكن لم أدعهم يعيشون في تخبط من لا يفهم حتى دوره الحياتي، أبطالي أمناء لأدوارهم الحياتية، وفي هذه الأمانة يتحركون بحرية" (٢٢). غير أن هذا لا يعني انعدام التدخل أو إظهار صورة المؤلف في الرواية أو بيان ثقافته أو روحية توجهاته الفكرية، إنما تتمحور الأمور تدريجياً، بمعنى تكون الأمور نسبية إلى حد بعيد. وأظن أن الشخصية تمثل دور الكاتب إلى حد بعيد، وإن لم تمثله فإنها تعرف به وتخبر الآخرين عن مدى التفاعل الثقافي لديه، وكذلك القيم التي يؤمن بها، لأن الشخصية قد تكون مطابقة للكاتب، وقد يكون معرّياً لها، أي عدم التوافق معها مما يظهر حالة الضدية، فالضد يظهر حسنه الضد. لذا قد "يختار المؤلف شخصياته بحيث تدع له مجالاً لاستعراض معلوماته في موضوع معين حبيب إلى نفسه" (٢٣).

إن الكاتب يحاول دائماً تقسيم شخصياته أنماطاً مختلفة، كل شخصية تقوم بالسبء الذي تمثله وتخلق من أجله، فقد تكون الشخصيات شريرة، وقد تتبع سبل الخير والرشاد، أو نجد بعضها فاعلاً ورئيساً في حين يكون الأخر ثانوياً عابراً، أو قد نجد الشخصية المعقدة وإلى جانبها شخصية بسيطة غير مركبة، لأن ذلك التعامل مع الشخصية تؤكده طبيعة الكاتب وثقافته ومعتقده والأفكار التي يؤمن بها ويدافع عنها، فالحياة البشرية لا تستقيم أبداً، أي لا يوجد فيها الخير المطلق أو الشر المطلق، إنما نجد حالة من التمازج بين الخير والشر، فكل منهما يدل على الآخر ويبرر منطلقاته التي توضح ماهية العلاقة بين الكاتب وشخصياته، فحين يلجأ الكاتب إلى استخدام ضمير المتكلم وإظهار الأنا فهذا يظهر حالة من الراحة والسكينة لديه، لأنه يكون راوياً يروي الأحداث ويعيش الحدث، لكن حين يتحدث عن ضمير الغائب فهذا إعلان صريح عن أن الوعي هو وعي الشخصية، بهذا تختلف التوجهات، وتكون حالة الحوار أو الأشياء الأخرى في الرواية مختلفة "ولا شك أن استعمال ضمير المتكلم هو مصدر راحة للكاتب الروائي في مجال التأليف، فهو أسلوب يتكون على هواه، أو هذا ما قد يشعر به الكاتب، لأن البطل يمنح القصة وحدة غير قابلة للانفصال بمجرد سردها، وربما لا تبدو سيرته معلقة منطقياً أو فنياً، إلا أن أي جزء هو على الأقل متحد بكل الأجزاء بواسطة التوافق في أنها ترجع إلى شخص واحد" (٢٤).

فعملية التطابق في المسلك بين الشخصية والكاتب، لا تعني بحال من الأحوال نزول الكاتب عن جزئيات الأمور وصغائرها، وبالذات لم يكن لديها فاعلية ومقدرة على إنماء الحدث وتطوره، فهو يختار الأشياء التي ترتقي بالحدث وتطور من أدواته فنياً ليتاح له النجاح والبقاء مع الأيام، فالتفاعل مع الشيء وتبصير الآخرين به غير الشيء الذي يصل إلى الناس بالوعظ والإرشاد، وكأن الكاتب ينتقل من مرحلة الفن والغوص في الهموم للارتقاء بها إلى إنسان مسطح ساذج يحاول خلق حالة من الإرشاد والتوجيه أكثر من أي شخص أخر. مثل هذا ليس سهلاً بل هو قتل لروحية الفنان وفاعليته.

إن علمية الإبداع تتسم بروحية الانفتاح والتطابق بين الفنان والمتلقي، لأن كل واحد منهم يحاول معرفة الآخر بالفن المتبادل بينهم، فحينما يشعر القارئ أنه قد وصل

إلى نتيجة مفادها الإحساس بتأليف النص والغوص في كهنوته، تكون حالة الإبداع قد وصلت إلى مرتبة يسهل لها العيش مع الأيام، بل تفرض نفسها في العيش في قلوب ونفوس وأفكار القراء الذين يتماثلون مع المؤلف، الذي هو جزء مهم في خلق حالة الوعي وتيار الوعي لدى الناس. وحينما يستكمل المرء قراءة رواية حنا إبراهيم "عصفورة من المغرب"، يتأكد لديه أنه نجح في إيصال فكرته للآخرين، وكذلك سيجد من يتبنى هذه الأفكار لو استطاع أن يخلد إلى الفن، ويعرف الآخرين بأفكارهم عبر فنهم الروائي.

هذا ما يجعلنا نوقن أن الرواية غير خالصة ومخلصة من العيوب والهفوات، أي أننا نجد في شخصيات حنا إبراهيم بساطة وهامشية، أي لا نجد تلك الشخصيات المعقدة أو التي تجعل محورية الصراع بيدها وتمسك بزمام الأمور، ولا نجد حبكة روائية بالمفهوم العام للحبكة، بل جعل الكاتب أفكاره تنساب بروحية بسيطة وأريحية بمدلولاتها المختلفة، حتى نحس أن هذا العمل اقرب إلى السيرة وصيرورتها من البناء الروائي الخالص.

فالكاتب استخدم ضمير المتكلم ثم ضمير الغائب، إلى جانب بعض الحوارات البسيطة التي لا تنم على مقدرة حوارية، بل قد تشي ببساطة الحدث بشكل عام، وهذا لا يفسر على أن الموضوع المطروح بسيط، بل إن طريقة العرض والتعامل مع المشكلة جعلت من الأمور وقد ظهرت بسيطة دون تعقيد، إذ لم يسيطر الراوي أي الكاتب على المستوى الزماني أو المكاني، وإن وجدناه يتدخل في بعض الأمور التي تستشف من خلال سياقات النص ذاته، حيث نجد العلاقة قائمة بين الراوي والمروي له، لأنه لم يجعل الأمور في حالة ضياع، بل انتهج النهج الوسطي، أي لم تكن الرواية قد بنيت على عقدة معقدة أثقلت كاهل الآخرين في فهمها والتعامل معها، وكذلك لا نجد حالة التسيب أو السذاجة المطبقة على العمل الروائي، بل الحالة الوسطية هي الفاعلة فيه. فحنا إبراهيم يقص الأحداث في بعض الأحيان وكأنه يبزغ من قلب الرواية في حين نجده قد جانب الأحداث وجعل الشخصية هي المتحدثة، وهذا قليل فيها.

إن الشخصيات التي تعامل معها حنا إبراهيم لم تكن واحدة أو لم تسر على نمطية واحدة، إنما هي متعددة ولم تكن وليدة المصادفة حتى يشعرنا من خلال الأشعار التي

دونها أنه على دراية بهذه القصة، وكأنه قام بسردها كما طلب منه:

أيها القدر الجائر مهــــــلاً … أنجبــــــــت طفلتــك الحمقــاء
طفلاً

لم يقل فرد مـــن الناس لها … أو لمـــــــن جاءت به أهلاً وسهلاً

يضحك الطفل وهو يملك كي … يشكو الــدهر وســـــوء الحــظ
عقلاً.

آه لو أنـــي كالطفل فـــلا … تنقضي الأيام إلا ازددت جهلاً (٢٥)

- الحدث

الحدث في الرواية واضح، فهو الذي يشكل العمل الأدبي، ويقوم هذا على ركنين فاعلين: الزمان والمكان، وتستمر الوتيرة الفاعلة في بناء الأشياء وتضافرها ممـا يجعـل الأحداث تتداخل، وتسير وكأنها لحمة واحدة إلى جانب حالات متعددة، ومـن يقـرأ هـذا العمل يجد أن الكاتب قد أدخل في ثناياه أموراً أخرى تدعيماً له وتبريزاً لقوته وفاعليتـه، حتى غدت تلك الأشياء من أمثال وحكم وغير ذلك إلى جانب العمل الروائـي مواضـيع تحتاج إلى نظر وتمحيص، لذا تجدنا نقرأ داخل النص الأدبي نصوصاً أخرى تنتمي إلـى جنس غير الرواية، تقرأ أمثالاً شعبية، وحكمة، وشعراً، وحكايات شعبية، وأحداثاً تاريخية وسياسية بعضها من آي الذكر الحكيم، شعراً "هذه النصوص وإن جاءت لتقدم الروايـة إلا أنها أصبحت هي نفسها مواضيع للبحث والتقدم كما يقول باختين". (٢٦)

حين تتداخل هذه الأشياء مع النص الروائي يصبح ثمة شعور بأن الفـارق يكـاد يكون منعدماً بينها، وكأن الكاتب قد عمل ذلك من أجل الانتصار لفكرتـه التـي يرمـي الوصول إليها، ولا يريد أن يغلب الزمان أو المكان، وإن وجدناه من خلال عرضه للمكان الأول الذي عاشت فيه (مالكة) ثم أستر (الدار البيضاء) في المغرب، يحاول أن يحببه إلى القارئ دون أثقال عليه، لأن طريقة العرض الإخباري الذي تحدث بها جـاءت صـادقة، حتى كأن الطفولة هي التي تنطلق، على الرغم من حالة السرد الإخبـاري الـذي تبنـاه

الكاتب، من أجل إيصال حالة العرض التي يهدف منها إلى تعريف القارئ بالمكان وجعله مكاناً محبوباً لديه " لم تكن مالكة زارت مدينة أخرى في مستوى الدار البيضاء لتقاربها بها، ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها أن ليس ثمة مدينة تدانيها جمالاً وروعة أو لتزاحمها على قلبها، كانت تعلمت عن أوروبا ومدنها الرائعة، إلا أنّ ما سمعته عن المعاملة السيئة والعنصرية التي تعرض لها شعبها اليهودي في كثير من تلك المدن والبلاد جعلها تبدو مرعبة". (٢٧)

هذا التعامل مع بداية خلق الحدث وتكوينه، وهو الانسجام الذي لم تخلق فيه جريمة أو تعذيب، نجده يفضله على المكان الذي تسوده أشياء كثيرة جميلة وممتعة كما هي المدن الأوروبية، إلا أنه ينتصر للبيئة المغربية، إذ لا يوجد ما يجعله لا ينتصر للمكان الذي هو لحمة الحدث وصاحب الهيئة العامة لذلك، وكأنا نحسه، وهو يقول: إن جماليات المكان المتعددة ليست هي التي تحبب الناس به، بل أشياء أخرى هي الفاعلة كما هي الطمأنينة والأمان والمحبة والعدل والمساواة والشعور بالمواطنة.

مثل هذا ينعكس على إبطاله أو شخوصه صانعي الحدث، فهو يختارهم من الدهماء، وليس من الطبقات المتنفذة مادياً أو معنوياً، لذا نجد هذه الشخصيات وهي تصنع الحدث ببساطة وهدوء وطمأنينة على الرغم من همومها وثقل الحياة التي يقع على كاهلها، هذا يرينا أن أبطال حنا إبراهيم مثلاً أو شخوصه هم غير شخوص أفنان القاسم أو غسان كنفاني أو جبرا إبراهيم جبرا أو إميل حبيبي، وإن يلتقي مع بعضهم أيديولوجياً إلا أن التعامل الفني مع الحدث وصانعي الحدث مختلف تماماً. فلو نظرنا إلى أبطال جبرا إبراهيم جبرا مثلاً لوجدناهم مثقفين، أصحاب أنا ... متضخمة، محبوبين وهم أبطال فرادى، أي أن البطل الفردي هو المسيطر، في حين نجد عند حنا إبراهيم الأبطال بسطاء لا تعقيد في شخصياتهم أو مسلكياتهم، بل هم من الطبقات الكادحة التي تسعى جاهدة للحصول على قوتها وإزاحة همومها، إلى جانب أن الوعي والنضج الفنيين لدى أبطال جبرا أعمق من حنا، وكذلك لدى غسان كنفاني، الذي يقترب من الناحية الفكرية من حنا إبراهيم، إلا أن طريقة التعامل الفني والفكري مع الشخوص صانعي الحدث مختلفة إلى حد بعيد.

الذي يتتبع الحدث من خلال صانعيه في هذه الرواية (عصفورة من المغرب) يجد أن بعض الشخوص غير متفاعلة مع المكان مما يشعرها بالاغتراب النفسي أو الزماني أو المكاني أو كل ذلك، فعلى الرغم من حالات الفرح والاحتفالات التي يحاول الكاتب إظهارها لدى المهاجرين اليهود، إلاّ أن بطلته (استر) لم تزل عالقة في الماضي، ولم تنعم بقيم الحاضر وعطاياه إن وجدت مع تتابع النكسات والهموم لديها، مما يجعلنا نوقن أن أستر صانعة الحدث والتي يقع على كاهلها الألم ما هي إلا صاحب تبعية للماضي وهموم الحاضر بقسوته وجبروته، فهي موجودة "في البنية الاجتماعية التي أنتج والتي تتطور، وتطورها تميزت عنه، وما تميزها عنه إلاّ تبعتها له، لا استقلالها عنه". (٢٨) هذا الماضي بكلّ جبروته جعل البطلة مثقلة بالهموم والآلام لأن الحاضر أكثر منه قسوة وألماً: "حاولت أن أرمي الماضي خلف ظهري، وإن أقيم علاقات عادية مع الناس وخاصة الجيران، ولكن جاء ذلك متأخراً، اكتشفت أني أصبحت مدمنة على المشروبات الروحية، مع أني كنت أحاول أن أفسّر ذلك بحبي للحياة والسرور، كان الأطفال يكبرون وتكبر المسؤولية، وكان ميخا الذي أرغمه داني على الإدمان عاجزاً عن التخلص منه، وكانت صحته تتدهور تدريجياً، لم يستطع الاندماج مع التلاميذ في المدرسة. (٢٩)

مثل هذا ليس بعيدا عن المجتمع اليهودي أو الصهيوني في التجمعات السكانية التي أقامها على أرض فلسطين، لأن كثيراً من المسلمات أصبحت في حالة شك لا يقين فيها لدى الناس، فما تقوم به أستر من أعمال وتصرفات ما هو إلاّ نتيجة للتراكمات التي أصابتها من خلال المجتمع، وما أصابت المجتمع من انقلابات مما جعلها تمر بصدمة"، "عبرت عن نفسها في حالات الانهيار النفسي والعصبي على المستوى واسع وفي تفشي حالات إدمان المخدرات والمغيبات بين الشباب" (٣٠) التي ساعدت على تفتيت الأواصر بين الناس، وكذلك وجهت بعض الناس صوب اليقين بعد الانهزامات التي أخلت في النفوس، بمعنى آخر نتيجة لوضوح الرؤى لدى نفر قليل من المجتمع اليهودي، وتعرية المواقف الزائفة للآخرين، أيقنوا أن الظلم الذي يقع على غيرهم، وهو من صنع أيديهم، ما هو إلاّ تحصيل حاصل بالنسبة لهم وللآخرين.

لذا بدأت أستر من خلال مصائبها ومصائب الآخرين من حولها تتلمس هموم الآخرين وتتفاعل معها، وكأنها تقول ليست الوحيدة التي تعيش في نكد مريع، إنما يوجد من يتألم مثلها مع اختلاف طبيعة الألم، إلاّ أن مصدر الألم واحد وهو ما يقوم به الشعب الإسرائيلي من تجاوزات في حق نفسه، والاعتداء على حقوق الآخرين يؤدي إلى تفاقم الأزمات واستمراريتها، حتى صرنا نرى الفكرة التي أرادها الكاتب، وقد أخذت تتجذر وتنمو ويعرفها الناس جميعاً، وهي الظلم الذي يقع على الشعب الفلسطيني عامة والجماهير العربية الفلسطينية في فلسطين خاصة من خلال القوانين الظالمة ومصادرة الأراضي والتمييز في التعليم والصحة وغير ذلك، إلاّ أن هذه الجماهير أثبتت نفسها وحققت بعض مكتسباتها بالنضال والحرص عليه لا على النضال الصدامي المدمي والدامي، وذلك لاختلاف المعايير وتباين وجهات النظر وقسوة المحيط وأمور أخرى يعرفها الناس الفاعلون وغير الفاعلين في المجتمع.

من هنا نرى أن الكاتب أخذ يعرض هموم شعبه ومشاكله واحدة واحدة من خلال موازنتها بمشاكل أستر، بدءاً من الهجرات المتتالية لليهود من البلدان المختلفة إلى فلسطين مروراً بالقوانين والعلاقات وغير ذلك، وقد أبرز الكاتب ذلك بصورة متلاصقة محببة على مسامع أستر التي أخذت تتفاعل معها على الرغم من همومها ومشاكلها التي تعيش معها وفيها "حتى إني لم أنتبه للحرب التي نشبت في لبنان في اليوم السابق، ولم أفطن إلى ضرورة الاتصال بأهلي وأقاربي، وكان على المرأة الواقفة قريباً مني أن تعيد جملتها مرتين لأنتبه إلى اليد الممدودة التي تحمل شطيرة من الخبز الرقيق تفوح منها رائحة الزيت والزعتر، كانت امرأة في نحو الأربعين من العمر تلف رأسها بنقاب ابيض وترتدي فستاناً طويلاً شأن النساء الدرزيات، قالت خذي كلي لقمة صار لك يوم كامل ما أكلت شيئاً".

الكاتب هنا يتعامل مع بطلته استر بواقعية، ويجعلها تتصرف دون تدخل أو إثقال منه إنما هي تسير مع الحدث وتتفاعل معه من أجل الدافعية الموجودة، وإبراز القيم المراد إيصالها للآخرين، بمعنى أقرب أن شخصية الكاتب هنا تبرز، وقد تعاطفنا معها ومع الشخصيات المناصرة لها حيث تظهر بعض الجوانب المعينة من خلال هذا الأمر الذي

نعيشه. لذا "تدخل بعض الجوانب المضيئة في نظرة الشخصية التي تصوغها القصّة الواقعية، حيث يراد لها أن تعبر بمنطق واقعي عن بعض المفاهيم التي من شأنها أن تقضي على بعض المعتقدات المختلة، أو يراد لها أن تكون نموذجاً إنسانياً قريباً من النفس محبباً إليها، بما تنطوي عليه صفاتها من قسمات واضحة، مألوفة تمس أعماقاً دفينة في حياة الشخصية المحلية وتنقل خواطر بسيطة من حياتها، ولكنها عظيمة الدلالة فيما توحي". (٣١)

بذلك نرى أن الأحداث تتداخل ونقصد بذلك أن صناعة الحدث لم تعد مقتصرة على شخصية واحدة، إنما تتعاون شخصية الكاتب مع شخصياته في صنع الحدث، علماً أن الكاتب هنا لا يعرف لغة مؤكدة أو لغة واحدة مؤكدة، بل يحاول أن يجعل طريقة الحوار والآداء متباينة أو مختلفة حسب توجه الشخصيات وبنائها.

كأنا نحس الكاتب وهو يخبرنا عمّا يفكر به من خلال الأسطر التي يتعامل معها، إن على لسان أستر أو سائر الشخصيات حيث من "الطبيعي أن يخبرك الشخص فيم يفكر، ولذا يقبل القارئ ما تعبر به الشخصية عن أفكارها ومشاعرها، متأثراً بانفعالاتها، فهو أشبه بالكورس أو المفسر". (٣٢)

مع كل ذلك لا نلمس أن شخصية معينة هي التي سيطرت على الحدث مع بروز شخصية الراوي أو المتكلم، ومدى فاعليتها، إلاّ أن هذا الأمر وأشياء أخرى جعلت كل الشخصيات تبرز معطيات الجريمة من خلال استمرارية الحدث وطواعية نموه وبنائه، فهذا النوع من التعامل مع الجريمة لم يكن لينحصر في رؤية واحدة، إنما يحاول إيضاح ما يصبو إليه بوسائل متعددة، أي لم يجعل الجريمة تسيطر على الحدث، وكذلك لم يسخر الحدث لإبراز الجريمة وكأنه يقصد الموازنة بين الأشياء من أجل استمرارية الحياة في روايته، أو من أجل كسب القارئ الذي يحاول استدراجه خدمة للفكرة والفن معاً.

فالذي يقرأ هذه الرواية يجد أن الجريمة تجسّدت من خلال أنماط متعددة، إلا أن نمطية الاغتصاب والتوارث بها هي السائدة، حيث يفضح الكاتب هذه الظاهرة الاجتماعية

ويفشي مفاسدها دون رتوش، لكنه يجعل الجرائم الأخرى تلازمها، وإن كانت لا تقل أهمية عنها بل تصاحبها كما هي جريمة الأحكام العرفية التي كانت سائدة ضد العرب إلى جانب نهب الأرض والسيطرة عليها خدمة للمصلحة العسكرية، وقبلها جريمة الهجرة إلى أرض شعبها يقتلع من جذوره، بهذا نرى أنماطاً متعددة من الجريمة، كل منها يوصل إلى الآخر ويجعل له مكانة مرموقة، وصور الجريمة المتعددة تصل إلينا عبر قنوات متعددة، باعتبار هذه الطريقة "طريقة شائعة في الروايات ذات الحدث العنيف أو المستهجن". (٣٣)

فالعمل العنيف يبقى خالداً في النفس وبالذات إذا أوصله الكاتب بصيغ متقدمة فنياً وأدائياً، فالقوة في ذاتية الفاعلين هي الأساس، بذلك تخصلت أستر من تبعات جريمة القتل ضد داني، لأن هذه الجريمة تعد دفاعاً عن النفس ومشروعة، وإن أوجد المحامي سالم صيغاً أخرى كي يخلص أستر، فهو يعي كما والده براءة هذه الضحية التي أقدمت على الجريمة من أجل حياة أفضل، فكانت الجريمة طريقاً للخلاص من الجريمة وتبعاتها. لأن المجتمع الذي تنتمي إليه أستر لم يحمها ولم يرحمها، ولم يقدم لها يد العون للخلاص من تبعات الماضي وقسوة الحاضر وقتامة المستقبل.

- ملامح فنية:

الدارس لراوية حنا إبراهيم "عصفورة من المغرب" يجد انه يبحث فيها الجوهر على الرغم من تناقضات الواقع والحياة بشكل عام، إنه يبحث عن أسلوب تتلاءم وسائله مع منظور البحث وتندمج عضوياً في سياق عملية إعادة خلق لتنتزع منابع التناقض في تصرفات بعض الشخصيات التي جاء بها كي تتجسد ثقافتها وفلسفتها من خلال نهج واضح الدلالات "يساعد على تعميق المعرفة بعلاقات المجتمع وظواهره الجوهرية" (٣٤) والمخيفة كذلك، حتى تسطع شمس الحقيقة من أجل إيقاظ الحس الجماعي وتبريز دوره في المسؤولية في مواجهة الحاضر ورسم المستقبل، "ففي مسيرتنا نحو الحرية السياسية والاجتماعية نحن بأمس الحاجة أن نشحذ ذلك السلاح الأصيل" (٣٥) سلاح الأدب المتعدد المنابع والأفكار الذي يصب في جدول واحد خدمة لفلسفة الحياة وتجسيدها.

وبما أن الكاتب قد خبر الحياة التي يعيشها، وحاول إيصال فكرة عنها فقد بدأ يتعامل مع الفكرة بواسطة تمتاز بصيغ خالصة حتى تجيئ روايته كما خطط لها فطبيعة العلاقة مع النص ليست سهلة، لكن اللغة والحوار من القرائن التي تظهر الفكرة إن "اللغة تشق طريقها إلى التعبير عن أحاسيس الإنسان وعواطفه" (٣٦)، فاللغة التي جاء بها الكاتب واضحة المعالم والدلالات، حيث لا نجد التعقيد ولا التفخيم، ولا الركاكة أي انه حاول السير وسطياً، أي أخذ اللغة الهادئة والصافية دون أن يمس بنية لغته مهما كان الحال. إن حرصه على اللغة جعله يعمد إلى الفصيح دائماً إلا ما ندر، وهذا جهد للكاتب لكنه يعد عيباً من حيث البنية الفنية، لأنه قد تعامل مع شخصياته المختلفة بمستوى لغوي واحد، أي انه لا يميز في طريقة عرضه اللغوي بين شخصية وأخرى، من خلال اللغة، وأظن أن هذا لا يستوي للناس كافة، فثقافتهم وطريقة إيصال الأفكار متباينة، لكن الكاتب أوصل فكرته العامة وأنطق الشخوص حسب هواه ومقدرته التعبيرية أحياناً لا حسب مقدرتهم ومدى تفاعلهم مع الحدث والقضية التي يناقشونها أو يتفاعلون معها. والمقطع الآتي على لسان أستر يدلل على ما نذهب إليه إلى جانب المقاطع الكثيرة الأخرى في الرواية "وكنت دائماً أفيق من أحلامي على الواقع المر. غير أن أحلامي وأوهامي كانت تخفف عني، ولم أكن بحاجة إلى إذن من أحد كي أحلم، كان هذا في صغري، أما اليوم فلم

تعد لي أحلام. صرت أعيش بقوة الاستمرار. لم أعد أخشى الموت بل أتصوره كمنقذ، وانتظره دون خوف لكن دون شوق كذلك". (٣٧)

لا يفهم من هذا أننا ندعو إلى العامية في الأدب، بل ندعو إلى جعل القيمة الفنية للعمل هي العامل الفاعل والأساس، فبما أن الكاتب قد تعامل مع اللغة الفصحى والصافية فعليه أن يخلق الحوارات حتى تتلاءم مع شخوصه وأفكارهم، لا أن تأتي على وتيرة واحدة، كما هي لغة حنا إبراهيم في هذه الرواية، لأن لغة المثقف في الحوار تتضح وتتميز عن غير المثقف، كذلك لغة حامل الأفكار والقيم هي غير لغة الإنسان البسيط أو الساذج في رؤيته وتعاملاته.

فبما أن اللغة جاءت على وتيرة واحدة، – في الأغلب – نجد الحوارات، كذلك، لم تكن لترتقي إلى المستوى الحواري المطلوب، على الرغم من تعدد ثقافات الشخصيات، نجد أن حواريات أم سالم وأستر، وأبو سالم وأستر، فضلاً عن استر مع ذاتها وأهلها، لا بون شاسعاً فيها ولا يوجود ما يمايزها عن بعضها: "خشيت أن يتعارك الرجلان، وكنت أعرف أن داني يحمل مسدساً، نهضت من الفراش، وأطلّيت على الغرفة الأخرى، كان الرجل يقف أمام داني الجالس ويمد يده بشكل لا يقبل التأويل، ومد داني يده إلى جيبه، لكن لم يخرج المسدس، بل ورقة نقدية من فئة المئة ليرة أعطاها للرجل مرفقة بابتسامة هازئة قائلاً: لا نحتاج زبائن مثلك. ولم يرد الرجل. أخذ الورقة النقدية والتفت فرآني، مد يده بالورقة نحوي قائلا: خذيها. أنت أحق بها من هذا اللئيم. لم أشعر وأنا أقول له: أشكرك، ابتسم، وقال: بل أنا الذي يجب أن أشكرك. لم أدرك ما يقصد. إلا أنه أضاف: بفضلك تراجعت عن ارتكاب معصية. وأعاهد الله أني لن أقع في حبائل الشيطان أبداً". هذا يدلل على أن الكاتب يتفاعل مع الواقع ويرصده لا يصوره فقط، لكن اللغة هنا لم تكن لترتقي إلى مستويات فنية معبرة وهذا يعود إلى خلل في البناء الفني للعمل الروائي والذي نقوله إلى جانب ذلك أن الكاتب لم يعمد إلى التعامل مع التراث الشعبي في هذا العمل الروائي، لذا تكاد روايته تخلو من اللغات المحكية والأمثال الشعبية والمواويل إلا عرضاً إن تلميحاً أم تصريحاً، لكنه جعل عمله خالياً من الأقوال والأعمال الشعبية التي تشكل متكآت لصحاب النص الأدبي، لذا نجد هذا العمل وقد خلص تقريباً من القيم والثقافات

الشعبية إلى الثقافة العصرية المقترنة بروحية الأصالة والدين والتفريق بين الحلال والحرام ورفض الكبائر والخطايا. فالعمل الفني المبدع هو الذي يوازن بين هذه الأشياء لأنه "يمثل التربة التي يمكن أن تنبت فيها الأفكار المبدعة، وتتم فيها عملية الإبداع" (٣٩)، فالإبداع لا ينفصل عن الواقع، لأن الكاتب وازن بين الإبداع والواقع وجعل من ذاته وسيطاً لتفعيل ذلك.

- الخاتمة

إن حنا إبراهيم كتب روايته، وهو يحمل في داخله فكرتين أساسيتين متداخلتين: فكرة البنية الاجتماعية للشعب اليهودي والمشاكل التي تواجهه، وهو يحاول إبراز مشكلة الزنا والدعارة والترويج لها وإيضاح المواقف منها، وكيف يتمثل فيهما الآخرون المستفيدون وغير المستفيدين، ليبين أن هذه المسألة من الأمور القديمة الحديثة والمتجددة معاً، مما جعل الناس يتفاوتون في تعاملهم معها.

لقد جعل هذه الفكرة مدخلاً إلى الفكرة العامة في الرواية وهي المصائب والهموم التي تحل بالشعب الفلسطيني، والتي بدأها من مصيبة التهجير والهجرة إلى التفرقة العنصرية بالقوانين العرفية والعسكرية إلى مصادرة الأرض والصراع الفكري تجاهها، وكيف نجده ينتصر لهذه الفكرة ويدافع عنها، لكن بأسلوب لا يثقل على الآخرين ولا يضيع منابع الفكرة الأساسية وأبطالها، ويحاول إظهار العرب بصورتهم الحقيقة، هي أنهم شعب يحتاج إلى حياة ويبحث عنها ولا يعارض أن يتقاسم الحياة مع المهاجر اليهودي شريطة ألا تكون على حساب وطنيته أو وعيه الثقافي، إلا أن القوانين التي يضعها المجتمع للمهاجرين اليهود يحول دون خلق الحالة الاندماجية بين العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود، واليهود المهاجرين إلى فلسطين من أصقاع مختلفة من الدنيا، على الرغم من التباين الثقافي والمعرفي والبيئي بينهم.

"الهوامش"

١ – نادي ساري الديك – ثلاثة شعراء من الجليل ص٣٣٣.
٢ – محمود الربيعي، قراءة الرواية، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، ص١٢٠ – ١٢١.
٣ – عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٨٢ ص ١١٧.
٤ – حنا إبراهيم، عصفورة من المغرب، سلسلة الثقافة رقم ٣٦، مطبعة الوادي، حيفا، ٢٠٠٢ ص١.
٥ – سعيد علوش، الرواية والأيديولوجيا، دار الكلمة للنشر، بيروت، ١٩٨٢ ص١٠٧.
٦ – زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص١٩١.
٧ – عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٩٩٨ ص١٦٠.
٨ – عصفورة من المغرب ص ٣.
٩– المصدر نفسه ص ١٢.
١٠– عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية ص١١٦.
١٢– عصفورة من المغرب، ص٢٢.
١٢– المصدر نفسه ص ٢٣.
١٣– المصدر نفسه ص ١٥.
١٤– قيس النوري، الاغتراب، اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت، ١٩٧٩ ص٨١.
١٥– عصفورة من المغرب ص ١٠٦.
١٦– سحر خليفة، لقاء أجراه عادل الأسطة، مجلة الكاتب العدد ٨ آب ١٩٧٩ ص٩.
١٧– لويس كامل وآخرون، الشخصية وقياسها، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩ ص١٣.
١٨– نادي ساري الديك، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ج١، دار الأسوار عكا ٢٠٠١ ص٥٤.
١٩– يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي، ط١، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠ ص٢٢.

٢٠- عصفورة من المغرب، ص ١٠٧.
٢١- المصدر نفسه ص١٢.
٢٢- أنور المعدّاوي، علي محمود طه الشاعر والإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٨٦. ص٢٥.
٢٣- حنا مينا، حوارات وأحاديث، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٩.
٢٤- عبد المحسن طه بدر، الروائي والأرض، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩ ص١٥٨.
٢٥- محمود غنايم، تيار الوعي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ ص٥٥.
٢٦- عصفورة من المغرب، ص ١٠٠.
٢٧- فيحاء عبد الهادي، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية، دراسات أدبية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م. ص ١٤٦.
٢٨- عصفورة من المغرب، ص ١.
٢٩- مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني، دار الفارابي، ط٣، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٤٢.
٣٠- عصفورة من المغرب، ص ٧٧.
٣١- إبراهيم البحراوي، الأدب الصهيوني بين حربي حزيران ٦٧ وتشرين ٧٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، حزيران ١٩٧٧ ص٢١.
٣٢- إبراهيم عبد الله غلوم، القصة القصيرة في الخليج العربي، الكويت والبحرين، دراسة نقدية "تحليلية" منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ط١، مطبعة الإرشاد، ١٩٨١ ص٣٠٠.
٣٤- المصدر فوتو، عالم القصة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦ ص ٢١٢.
٣٤- المصدر نفسه.
٣٦- توفيقم عبد الله غلّوم، القصة القصيرة في الخليج العربي، الكويت والبحرين ص٦٤٣.
٣٦- توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠ ص٢٩.

٣٧- عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ ص ٣٥٧.

٣٨- عصفورة من المغرب، ص٩٦.

٣٩- المصدر نفسه ص٧٦.

٤٠- عبد الحليم محمود السيد: الإبداع والشخصية، دار المعارف، مصر، ١٩٧١، ص ٩٢.

المصادر والمراجع

١ - إبراهيم البحراوي، الأدب الصهيوني بين حربي حزيران ٦٧ وتشرين ٧٣. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١ حزيران ١٩٧٧.

٢ - إبراهيم عبد الله غلوم، القصة القصيرة في الخليج العرب: الكويت والبحرين، دراسة نقدية تحليلية. منشورات مركز الخليج العربي - جامعة البصرة، ط١، مطبعة الإرشاد بغداد.

٣ - أنور المعدّواي، علي محمود طه الشاعر والإنسان. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالإشتراك مع دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق. ١٩٨٦.

٤ - برنادي فوتو: عالم القصة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.

٥ - توفيق زياد: عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠.

٦ - حنا إبراهيم: عصفورة من المغرب، سلسلة الثقافة رقم ٣٦. مطبعة الوادي، حيفا، ٢٠٠٢.

٧ - حنا مينا: حوادث وأحاديث، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٢.

٨ - زكي العشماوي: موقف الشعر من الفن والحياة. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.

٩ - سحر خليفة، لقاء أجراه عادل الأسطة، مجلة الكاتب العدد ٨، آب ١٩٧٨.

١٠- سعيد علوش: الرواية والأيدولوجيا، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨٢.

١١- عبد الحليم محمود السيد، الإبداع والشخصية، دار المعارف، مصر ١٩٧١.

١٢- عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٨٢.

١٣- عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط١: دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٨.

١٤- عبد المحسن طه بدر، الروائي والأرض، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٧٩.

١٥- عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية في مصر. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

١٦- فيحاء عبد الهادي، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية، دراسات أدبية، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.
١٧- قيس النوري، الإغتراب، اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً. مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت ١٩٧٩.
١٨- لويس كامل وآخرون: الشخصية وقياسها، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.
١٩- محمود الربيعي، قراءة الرواية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.
٢٠- محمود غنايم، تيار الوعي، دار الجليل، ١٩٨٢م.
٢١- مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني،
ط٣، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠.
٢٢- نادي ساري الديك، ثلاثة شعراء من الجليل، مجلة الأسوار العدد /٢٥/ عكا ٢٠٠٣م.
٢٣- نادي ساري الديك، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية، ج١، دار الأسوار عكا ٢٠٠١م.
٢٤- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي، ط١، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠.